رحم الله الشيخ المعلم
الدكتور عبدالكريم الغرايبة (١٩٢٣ – ٢٠١٤ م)

أ.د. زيدان كفافي

ولد الشيخ المعلم، الذي رأى أن تسمية الدكتور لا تليق به لأنها مصطلح غربي لا يتفق وثقافته العربية، واستحضاره للمحطات التاريخية العربية الرحبة، في حزيران من عام ١٩٢٣م في بلدة المغير التي تبعد حوالي ١٣ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من مدينة إربد في شمالي الأردن. وهو الإبن البكر لشيخ عشيرة الغرايبه "محمود باشا الخالد". وأما والدته فهي السيدة "أمينة الغرايبة" إبنة عم وإبنة خالة لزوجها. وله من الإخوة ثلاثة هم (طريف ووائل وفيصل) ومن الأخوات ثلاث هن (نهاد وسعاد وبثينة).عمل والده في عدد من الوظائف الحكومية في عهد الأمارة ، منها: مدير ناحية عجلون، وقائم مقام في كل من جرش ومأدبا، ورئيساً لبلدية إربد. وكانت بداية التعلم وهو طفل في القرية على يد أحد الكتّاب هو "الشيخ علي خليل".

نتيجة لتعدد أمكنة عمل الوالد أضطرت العائلة إلى التنقل والترحال مما ترك أثراً في طبيعة حياتها. إذ تنقل الإبن عبد الكريم بين عدد من المدارس في مدن إربد ومادبا وعجلون والسلط ، وعاش أحياناً وحيداً في بعضها وهو في عمر الطفولة، وحتى حينما أصبح يافعاً. فحين كان والده يعمل في عجلون سكنت عائلته هناك لكن عبد الكريم أضطر للذهاب وهو في سن العاشرة أي في عام ١٩٣٣م إلى المدرسة في مدينة إربد، فاستأجر له والده هناك غرفة ليسكن فيها وحيداً، معتمداً في تدبير شؤون حياته اليومية على نفسه. كذلك الأمر حصل معه عند التحاقه عام ١٩٣٩م بمدرسة السلط الثانوية. هذا الأمر أفاده كثيراً في الاعتماد على نفسه، وفي القدرة على مجابهة صعوبات الحياة.

وبعد أن تخرج في صيف عام ١٩٤١م من مدرسة السلط الثانوية بنجاح، أرسله والده في عام ١٩٤٢م لدراسة الطب في الجامعة الأمريكية في بيروت، وسمح له في مطلع العام الدراسي ١٩٤٤/ ١٩٤٥م وبعد أن اجتاز كل المتطلبات المؤهلة لدخول هذا التخصص بالتسجيل فيه. لكن الرياح لا تجري بما تشتهي السفن، إذ أضطر لتغيير تخصصه بعد أن بدأ بالتدريب العملي على دراسة تشريح جسم الانسان. ويبدو أن أعصابه لم تتحمل رؤية تشريح جسم إنسان، فوقع مغشياً عليه أكثر من مرة، إضافة إلى أنه أصيب بمرض "حمى الدنجي" ففرض عليه حجر صحي لبعض الوقت مما تسبب في تأخره عن متابعة محاضراته مع أقرانه، فقرر الانسحاب من دراسة الطب والتحول إلى دراسة التاريخ. وفي شهر حزيران من عام ١٩٤٧م أنهى دراسة البكالوريوس في التاريخ، وعاد إلى بلده واضعاً نصب عينيه متابعة الدراسات العليا في هذا التخصص، ولقي هذا التوجه تشجيعاً كبيراً من والده.

سافر عبد الكريم في شهر أيلول من عام ١٩٤٧م إلى لندن، والتحق بكلية الدراسات الشرقية الأفريقية (School of Oriental and African Studies) في جامعة لندن، قضى فيها ثلاث سنوات ونصف مبتعثاً على حساب الحكومة الأردنية. وأثناء دراسته تتلمذ على يد نخبة من علماء الآثار المشهورين من أمثال ماكس مالوان (زوج الأديبة المعروفة أغاثا كريستي)، ومورتيمر ويلر، وجوردون تشايلد؛ والتاريخ مثل بيرنارد لويس المتخصص بدراسة العرب والعثمانيين. وبنظرنا أن خلفيته العلمية هذه، والمنهج الذي تتلمذ عليه، كانا وراء ربط دراسة الآثار بالتاريخ حين انشاء هذا القسم في عام ١٩٦٢م في الجامعة الأردنية. ليس هذا فقط، فقد كان وراء إنشاء متحف للآثار في الجامعة.

حصل عبد الكريم على درجة الدكتوراة في عام ١٩٥١م من جامعة لندن، عاد بعدها إلى الأردن ليقدم نفسة للخدمة في ملاك الدولة، إذ كان ملتزماً للعمل فيها مقابل ابتعاثه. وبناء عليه صدر قرار بتاريخ ١/ ٧/ ١٩٥١م بتعيينه مفتشاً للآثار في دائرة الآثار العامة الأردنية، والتي كان مديرها في ذلك الوقت الانجليزي "لانكستر هاردنج". لكن صاحبنا لم يجد أن طبيعة العمل في هذه الدائرة تتوائم ومؤهلاته العلمية، خاصة مع قلة إمكانيات الدائرة المالية والفنية في ذلك الوقت، فعزم الأمر على تركها. ومن حسن طالعه أنه تلقى في نيسان من عام ١٩٥٣ عرضاً من الجامعة الأمريكية في بيروت للقيام بدراسات تتعلق بتاريخ وجغرافية بلاد الشام، فحصل على إعارة من دائرة الآثار

الأردنيـة والتحـق بعملـه الجديد هنـاك. لكن تشـاء الأقـدار أن تتصل به جامعـة دمشـق عارضة عليـه تدريس مـادة تاريخ العـرب الحديث فيها، ففـرح كثيراً بالعرض، فتقدم بطلـب للجهات المختصة في الأردن لإعفاءة من التزامه بالخدمة في دائرة الآثار العامة، لكن طلبه رفض، فغادر البلاد دون تسـوية للأمـر. بنـاء عليه أصـدرت الحكومة قـراراً باعتبـاره فاقداً للوظيفـة، وطالبته بتسـديد إلتزاماته المالية المتبقية عليه، فقام بتسـديدها حسب الأصول.

عمل صاحبنا سـنتين كاملتين (١٩٥٣-١٩٥٥م) في جامعة دمشق، لكن حنينه للوطن غلبه، فعاد إلى البلاد حيث عين رئيسـاً لقسـم التشريع فـي ديـوان الموظفين. فوقف مرة أخـرى حائراً ماذا يفعـل، فهذه الوظيفة لا تناسـب دراسـته وخبرتـه العمليـة. فـداوم علـى مضـض فيهـا، حتى جاءه الفرج بعد شـهرين من بدئه العمل إذ طلبته جامعة دمشـق رسـمياً مـن الحكومة الأردنية للعمل معـاراً فيها، فوافقت الحكومـة بعد أن قبلت استقالته من عمله في ديوان الموظفين.

عـاد عبدالكـريم مـن جديـد إلى مـا يهـوى، مهنـة التدريـس والعمل الجامعي. لكن وبعد اسـتقر به المقام في جامعة دمشـق، وجد من تسـكن قلبه "بيهمان عارف العنبري" وهي من أسرة دمشقية وتزوجها في آذار مـن عـام ١٩٥٦م. وأنجبا ولداً وحيداً هو الطبيـب الدكتور رائد الذي ولد في ١٣/١٢/١٩٥٧م في دمشـق. لكن الأمر لم يسـتقر على هذا الحال، فبعـد تعريـب الجيـش الأردنـي والاسـتغناء عـن الموظفـين الأجانـب في الأردن في عام ١٩٥٦م، عين عبد الكريم الغرايبه مديراً عاماً لدائرة الآثار بتاريـخ ١/١٠/١٩٥٦م. وكان مـن أولـى أولوياتـه وضع يـد الحكومة الأردنيـة على مخطوطات البحر الميت التي أكتشـفت فـي قمران وغيرها، فقـام على جمع ما اشـترته بعض البعثات والجمعيـات الأجنبية من تجار الآثـار، وأحضرهـا إلى عمّـان لتحفظ في "متحف الآثـار الأردني" المبني علـى جبـل القلعة عوضاً عـن وجودها في متحف "روكفلـر" في القدس. وطبعـاً هذا الأمر لم يرق لبعض النـاس فنقل من عمله مديراً للآثار للعمل فـي وزارة التربية والتعليم. فاسـتنكف عن العمـل، فاعتبر فاقداً للوظيفة للمرة الثانية. غادر بعدها الأردن عائداً للتدريس في جامعة دمشق. وبقي في دمشـق حتى عام ١٩٦١ عندما التحق بجامعة الرياض لتدريس مادة التاريخ فيها.

صدرت الإرادة الملكية السـامية بتأسـيس الجامعـة الأردنية في عام ١٩٦٢م، وكان الدكتـور عبـد الكـريم الغرايبـة أول المعينيـين فيهـا، بعـد الأسـتاذ الدكتـور ناصرالدين الأسـد/رئيس الجامعة، وبقـي فيها حتى عام ١٩٩٧م. عين بعدها أسـتاذ شـرف في الجامعة حتـى وفاته في عام ٢٠١٤م. من هنا نرى أنه واكب إنشـاء الجامعة منذ نشـأتها، فبالإضافة للتدريـس وتأليف الكتب والأبحاث، عمل فـي أكثر من وظيفة إدارية فيها تدرجـت من رئيس قسـم، وعميد، ونائب رئيس، وقائـم بأعمال الرئيس. كما أنه عين في عام ٢٠٠٦م عضواً في مجلس الأعيان الأردني.

اسـتطاع المرحـوم الدكتور عبد الكريم الغرايبـه أن يضـع بصمته في كتابة تاريخ العالم العربي، وهو يعدّ من أبرز المؤرخين العرب في العصر الحديـث. ولـم يقتصر اهتمام الدكتـور الغرايبه العلمي علـى الأردن، فقد كان شاملاً لكل الوطن العربي. وله من الأبحاث والدراسات الكثير، لكننا ندرج أدناه بعضاً منها:

١. تطور مفهوم النضال العربي الحديث، مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٩م.
٢. مقدمـة تاريـخ العـرب الحديـث (الجزيرة العربيـة والعـراق)، مطبعة جامعة دمشق عام ١٩٦٠م.
٣. إفريقيـا العربيـة فـي القـرن العشـرين، مطبعـة جامعـة دمشـق عـام ١٩٦٠م.
٤. العرب والأتراك، مطبعة جامعة دمشق عام ١٩٦١م.
٥. سوريا في القرن التاسع عشر، معهد الدراسات العربية عام ١٩٦٢م.
٦. قيام الدولة السعودية، معهد الدراسات العربية عام ١٩٧٤م.

لقد عرفت الدكتور الغرايبة منذ التحاقي عام ١٩٦٧م طالباً في قسم التاريـخ والآثـار في الجامعة الأردنيـة، وعملت تحت إمرتـه أميناً لمتحف الآثار في الجامعة (١٩٧٢-١٩٧٧م)، وتعاملت معه وأنا أكاديمياً. وكان طيلة هذه المدة منحازاً إلى تدريس التاريخ العربي، وكان كثيراً ما يحدثنا عن دراسـته في جامعة لندن وعلاقته مع أسـتاذه مالـوان وزوجته أغاتا كريستي، وعن مشاركته مع كاثلين كنيون في حفريات أريحا، وكيف أنه أصر على أن تكون مخطوطات البحر الميت في عمّان. ولا زلت أذكر قولته المشـهوره "التاريخ مادة متفجرة وأقوى من القنبلة النووية". كانت كل جلسة مع الدكتور الغرايبة درساً في التاريخ القديم والحديث والمعاصر. وكان يعـرف الناس والأحداث عن ظهر قلب، فذاكرته بقيت متوقدة حتى وفاتـه. ولا زلت أذكر أنني أرسـلت لـه بحثا متعلقاً بخليج الاسـكندرونة للتقييـم (حين كنت رئيسـاً لهيئة تحرير مجلة أبحاث اليرموك/ سلسـلة العلـوم الإنسـانية والإجتماعيـة)، فاعتـذر عن تحكيم البحـث، وكتب إلي جملة قصيـرة يقول فيها "أرجو ألا تحرجني بتحكيم هذا البحث، فخليج الاسكندرونة وفلسطين بالنسبة إلي أخوات".

هـذا هو أبـو الرائد الأسـتاذ الجامعـي، والباحث العروبي، والشـيخ المعلم. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

أ.د. زيدان كفافي